تجليات فضاء المكان في أدب السجون

رو اية سيغون ستارغو لمحمد بن زخروفة –أنموذجا-

Manifestations of space space in the literature of prisons (Novel" Seguon Starguo" by Mohammed ben Zakhroufa - model -)

حنان عبد المالك*

تاريخ الإرسال:2022/02/01	تاريخ القبول: 2022/05/18	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

يتناول هذا المقال موضوع أدب السجون في الرواية، وقد تم اختيار رواية "سيغون ستارغو" لمحمد بن زخروفة كمدونة للدراسة، إذ هدفنا خلالها إلى قراءة الرواية من زاوية تستظهر خفاياها، وتبين أهميتها في إبراز تجليات فضاء السجون بين جنباتها، وقد لعب فضاء المكان في الرواية دورا مهما في تشكيل معالم النص الروائي، وهو ما يطمح إليه أدب السجون.

الكلمات المفتاحية: أدب السجون، المكان، محمد بن زخروفة، رواية سيغون ستارغو.

Abstract:

This article deals with the subject of prison literature in the. " Seguon Starguo".novel by Mohammed ben Zakhroufa was chosen as a study blog, during which we aimed to read the novel from an angle that reveals its secrets, and shows its importance in highlighting the manifestations of the prison space between its sides, and the space of the novel played an

* جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي -

Abdelmalek-hanane@univ-eloued.dz

important role In shaping the features of the narrative text, which is what prison literature aspires to.

Key words : the Place, Prison literature, Mohammed ben Zakhroufa, Novel" Seguon Starguo".

المؤلف المرسل: حنان عبد المالك Abdelmalek-hanane@univ-eloued.dz

*** *** ***

1.مقدمة:

مما لا شك فيه أن الرواية العربية تعد من أكثر الأجناس الأدبية انفتاحا وتفتحا. وهو ما جعلها تعبد سبل التفاعل الحضاري والتكيف مع الآخر. فأصبح الإنسان العربي يواجه مدا حضاريا كبيرا، جعله يزداد تعقيدا وغموضا بفعل التغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية، التي خلقت عالما من التناقضات والصراعات مع النفس البشرية، بسبب عجزه على التأقلم مع المعطيات الراهنة للواقع ما أدى إلى بروز ظواهر عديدة تنوعت بتنوع مصطلحاتها ومفاهيمها، ما جعلها تنعكس على الإنسان سلبا أو إيجابا.

ومن بين المواضيع التي سجلت حضورا بارزا في كتابة الرواية العربية قضية السجون على اختلاف فضاءاتها، وقد حققت هذه الأخيرة قفزة نوعية بفعل الكتابة في هذا الموضوع جعلتها تصل إلى القراء والجماهير دون حواجز، لأنها بسيطة ومرنة، تعبر عن تجارب المساجين في تغيير واقعهم الذي يعيشونه. وقد وقع اختيارنا على أحد الأعمال الروائية لـ"محمد بن زخروفة"، على اعتباره من بين الكتاب المبدعين في فن الرواية المغاربية، حيث تعرض خلال روايته " سيغون ستارغو " إلى موضوع السجن، بطريقة سردية تنم عن قدرة كبيرة في التعبير عن هذه التجربة. وقد جاءت دراستنا محاولة للإجابة عن إشكالية الموضوع الأساسية التي جاءت كما يلي:

- إلى أي مدى تجلى فضاء المكان في أدب السجون في رواية" سيغون ستارغو" ؟ وكيف تم ذلك؟

وقد انبثق عن هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات الفرعية منها:

- ما هو أدب السجن؟

- من هو الروائي محمد بن زخروفة؟ وما هي روايته " سيغون ستارغو "؟

- كيف برز فضاء المكان في رواية " سيغون ستارغو " لمحمد بن زخروفة؟

للإجابة عن هذه التساؤلات وأخرى، سعت دراستنا إلى الوصول إلى إبراز ملامح فن أدب السجون وتصويره لدى الروائي محمد بن زخروفة. وكان معتمدنا في الدراسة على بعض آليات المنهجين البنيوي والسيميائي، إذ تطرقنا بداية إلى الحديث عن مفاهيم عامة حول أدب السجون، ثم أفردنا جزءا من الدراسة إلى قراءة لعتبة العنوان الخاص برواية "سيغون ستارغو"، وصولا إلى إبراز جماليات فضاء المكان فيها، وختمنا الدراسة بإدراج مجموعة من النتائج التي تم الوصول إليها.

2. ماهية أدب السجون

1.2 مفهوم أدب السجون:

يعد أدب السجن رافدا هاما من روافد الأدب العربي، وقد أسهم فيه بدرجات متفاوتة رجال ونساء، على اختلاف انتماءاتهم السياسية والفكرية والعقدية، وتعتبر كتابات أدب السجون ظاهرة موغلة في القدم، لذا وجب علينا قبل الغوص في موضوع الدراسة، أن نقف عند ماهية هذا الجنس الأدبي، بداية بمعنى الأدب ثم السجن لغة واصطلاحا، ليأتي بعد ذلك الوقوف عند المصطلح ككل.

ورد ذكر لمفردة الأدب في العديد من المعاجم اللغوية، فجاء في معجم لسان العرب" الأدب: الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمي أدبا لأنه يَأْدِب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح. وأصل الأدب الدعاء"[1]، بينما جاء في معجم العين" رجل أديب مؤدب يؤدب غيره ويتأدب بغيره."[2] ، ومن خلال تتبعنا لمفردة الأدب نجدها تصب في معنى التأدب وحسن الخلق.

وكما أنه لكل مفردة مفهومها اللغوي فلكل منها معناها الاصطلاحي ولمفردة الأدب العديد من المعاني الاصطلاحية التي تم ذكرها قديما وحديثا ونذكر من بينها:

ورد في معجم المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي أن العرب" إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم، والأخذ من كل علم بطرف"[3]. وهو تعريف أجمع عليه جل معاجم الاصطلاح التراثية، إذ يجمع بين الحفظ وسعة الاطلاع في مختلف العلوم.

وورد في قاموس المصطلحات أن الأدب" فن من فنون الإبداع، يعتمد على اللغة الأدبية، في صياغة إحدى التجارب البشرية أو التاريخية داخل إطار فني معين يرتبط بمعايير معينة، على صلة مباشرة بالنظرية الأدبية في العصر الذي يتم فيه عملية الإبداع"[4]. وهذا يعني أن الأدب فن كغيره من الفنون الأخرى، وهو علم له قواعده وضوابطه التي تؤسسه.

وكما كان الشأن لمفردة الأدب فلم تخلو المعاجم اللغوية من إيراد تعريف لمفردة السجن فجاءت في مادة "س، ج، ن" بمشتقاتها المختلفة واستعمالاتها ذات الدلالة المتعددة نذكر:

ورد في معجم لسان العرب" السجن: الحَبْس. والسجن بالفتح: المصدر. سجنَه يسجُنُه سَجْنا أي حَبَسَهُ. وفي بعض القراءة: قال رب السجن أحب إلي. والسَّجن: المحبس... والسجان: صاحب السجن. ورجل سجين: مسجون"[5]. وجاء في المعجم الوسيط "سجنه: حبسه، وسجنه الهم: لم يبُثّه. والسجن بالكسر: المحبس. سجان. والسجين: المسجون، ج: سجناء و سجنى و سجائن. وهي سجين وسجينة ومسجونة"[6].

من خلال تتبع معنى المفردة اللغوية لكلمة سجن يمكننا القول بأنها تفضي بنا إلى معنى الأسر والقيد فيما أن السجين هو المحبوس.

هذا ومن خلال تعقبنا لدراسة المعنى الاصطلاحي لمفردة السجن، فإننا نجد من التعاريف ما ورد في الموجز في علم الإجرام والعقاب حين يقول صاحبه:" يقصد بالسجون تلك المؤسسات المعدة خصيصا لاستقبال المحكوم عليه بعقوبات مقيدة للحرية"[7]. وقد أورد محمد حور تعريفا له في كتاب القبض على الجمر حين يقول: " يعد السجن مظهرا من مظاهر العقاب للمرء على ذنب اقترفه أو خطا وقع فيه أو جرم ارتكبه، سوغه القانون

وأقره المجتمع. إلا أن السجن كان- بالإضافة إلى ذلك – لونا من ألوان الظلم للإنسان، إذا نتج عن موقف حر وقفه، بكلمة حق قيلت لسلطان جائر"[8]. ونتيجة لما سبق ذكره يمكننا القول أن السجن هو هيكل مادي يقضي فيه المسجون فترة عقوبته سواء كان مذنبا أم بريئا.

إذا ما نحن ربطنا كلا من مفردتي الأدب والسجن نتج لنا فن أدبي له خصوصيته، وقد يصعب علينا تحديد مفهوم شامل لهذا الفن على الرغم من قدمه. و"يعرف أدب السجون على أنه الأدب المكتوب عندما يكون الكاتب مقيدا في مكان ضد إرادته، مثل السجن أو الإقامة الجبرية، ويمكن أن تكون الأدبيات حول السجن أو عن مرحلة قبله، أو مكتوبة أثناء إقامة الكاتب في السجن، وإما أن تكون مذكرات، أو قصص، أو محض خيال"[9]. وبذلك فهو مصطلح عام لأنه يجعل من كل ما كتب حول السجن أدبا، أي متضمنا لقيم جمالية وفنية، والحقيقة غير ذلك فكثير مما كتب في أدب السجون يتأرجح بين الأدب" و"التدوين" والتاريخ" والشهادة والاعتراف، ودراسة أدب السجون يساعد على" رصد مشاعر السجين بسبب فقدانه حريته الطبيعية"[10].

استخلاصا لما سبق يمكن القول أن أدب السجون فن أدبي قد يكون شعرا أو نثرا، يعبر من خلاله المسجون عما يختلجه داخل السجن. سواء كان بدافع الكتابة التي قد تكون في الغالب سياسية أو لمجرد إخراج للمكبوتات النفسية.

2.2 أدب السجون بين الرؤية والتشكيل

يعتبر الحديث عن موضوع السجون أمرا ليس مقتصرا على الأدباء الذين سجنوا فحسب، بل أنه كان موضوعا عاما تناوله معظم الشعراء. أما الذين سجنوا فكان وقع الظلم عليهم شديدا إلى الحد الذي جعل معاناتهم تفوق أي معاناة، وهو متعدد الوجوه "فكان الظلم الاجتماعي والفكري والظلم الإنساني والذي كان يحرم الشاعر من حقوقه فكان هذا الظلم أحد مظاهر العبودية"[11]، وكانت العبرة في نظرهم تكمن في انتصار المظلوم.

ولم يكن أدب السجون وليد اليوم ولكنه مذكور في التراث العربي والغربي منذ القديم، وقد نقلت إلينا كتب التاريخ والأدب العديد من المقطوعات الشعرية والنثرية لكتاب كتبوها إبان فترات حبسهم. ويجدر بنا القول أنه قد حدث لأدب السجون تغييب منذ القديم، ذلك لأنه يدخل في خانة المعارضة، وذلك" لأسباب عديدة أهمها العامل السياسي إذ المعتقد أن الشعراء باحوا بذات نفوسهم وخففوا عنها بكثير من الشعر الناقم، ولكن الخوف من السلطان منع من تناقل ذلك الشعر وسيرورته بين الناس"[12].

وقد تطرق أدب السجون عبر مسيرته لمجموعة من القضايا والمواضيع سواء التي مست الشاعر السجين وتأثر بها، فغلب "على كتّاب أدب السجون الشكوى والحزن والتبرم مما هم فيه: حنين للأهل والوطن، وألم من السجن وضيقه، واستعطاف لأولى الأمر، وندم على ما اقترفوه من ذنب ووعد بأن لا يعودوا إليه، ولهذا جاءت أشعارهم صورة لأحوالهم: رقة وضعفا، واستسلاما. وابتعدت عن الصلابة والقوة والتحدي الذي لاحظناه عند نمط آخر، من الشعراء أصحاب المواقف الفكرية والسياسية والاجتماعية، الذين كانت لديهم رؤية يسعون لإيضاحها وقضية يدافعون عنها"[13]، ومن أدب السجون ما يصف لنا مواقف " بعض الشعراء، وقد دفعوا إلى الحافة الرهيبة التي تهوي بهم إلى العالم الآخر، واشروا على الموت، ومثل هذا الأدب تصريح للصراع النفسي لما تبدت النهاية المرهبة، فمن السجناء من اعتراه شعور الراغب بإيقاف الزمن وتجميده حتى لا يتقدم به إلى الساعة المرتقبة"[14]، وبذلك تعددت موضوعات أدب السجون، وكان الهدف منها إبراز مدى معاناة السجين والتخفيف من آلامه ومعاناته.

وهذا يعني أن تجربة السجن طرحت في الأدب العربي منذ قديم الزمان، وقد جسد "شعراء العرب في الجاهلية والإسلام أشكال التعذيب في السجون ومراحله وأساليبه في قصائدهم، ورسموا صورا واضحة المعالم لشخصيات السجانين ومعاناة السجناء وعذابهم، ولحظات ضعفهم وصمودهم، وهواجسهم وأحلامهم وأفكارهم، وقد تصدى

لتناول هذه التجربة الإنسانية القاسية عدد وافر من الشعراء"[15]. الذين جسدت كتاباتهم مدى معاناتهم فصوروا ذلك بطريقة أو بأخرى.

ومع تطور الحياة أصبح للحياة السياسية أثر بارز في حياة الكتاب والشعراء، فعبروا عن أفكارهم ومواقفهم بكل حرية، وهذا ما كان يراه الكثير من الحكام بأنه تمرد وخروج غير مشروع عن سياسة الدولة، فكان مصير هؤلاء السجن، وقد كان لموضوع الظلم نصيب أكبر في كتاباتهم. فجاءت"الأمثلة كثيرة ومتنوعة لكتاب خلدوا تجربة اعتقالهم وسجنهم في التراث الإنساني، وقد حفل الأدب العربي الحديث بالمئات من الدواوين والأعمال السردية في هذا الموضوع خاصة خلال فترة الاستعمار وما بعدها، أثر اشتداد الصراع بين السلطة السياسية والسلطة الفكرية وبين الحاكمين والمثقفين من المحكومين، ورغم ما في ذلك من ألم ومعاناة وظلم أحيانا فستبقى أعمال مثل ديوان (وراء حسك الحديد) للعراقي محمد بهجت الأثري، و(أغاني الغرباء) لنجيب الكيلاني "[16]، وغيرهم كثير من أهم الكتابات في أدب السجون.

ولعل أكبر تجربة لشعر السجون كانت في دول المغرب العربي، إذ أن الشعراء المغاربة أنشدوا قصائدهم في ظروف قاسية، دعت إليها نيران التسلط والقهر، فكان الكفاح الذي خاضه الشعب ضد المستعمر في هذه البلدان كفاحا مريرا، ولعل أهم تجربة شعرية، هي تجربة الكفاح الذي خاضه الشعراء الجزائريون ضد المستعمر الفرنسي، وقد عبر عنها الشاعر مفدي زكريا وأحسن في ذلك. وهو ما يثبت أن التجربة السجنية والمعبر عنها تحت ظل أدب السجون تبقى موحدة في بعدها، ومرجعيتها الواقعية.

وقد شكل أدب السجون نقطة التقاء بين أقطار الوطن العربي، وذلك لكونه يعبر عن تجربة مريرة يمر بها الإنسان تقيده وتشعره بالألم والعذاب، وقد احتلت دول مثل "العراق، مصر، المغرب، ودول الشام المراتب الأولى عربيا من حيث التأليف في أدب السجون، الذي تنوع في المغرب بين الشعر والقصة والرواية والسينما والتشكيل "[17].

هذا ولا ننسى أن الأدب الفلسطيني عج بمؤلفات أدب السجون بسبب الاضطهاد الذي تمارسه السلطة الإسرائيلية، ففرض نفسه في الأدب الفلسطيني كظاهرة أدبية" أفرزتها خصوصية الوضع الفلسطيني، مع التذكير أنها بدأت قبل احتلال حزيران 1967، فالشعراء الفلسطينيون الكبار: محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، وغيرهم تعرضوا للاعتقال قبل ذلك وكتبوا أشعارهم داخل السجون.

ويجدر التنويه إلى أن أدب السجون والكتابة فيه ليس حكرا على الفلسطينيين والعرب فقط، بل هناك آخرون مثل" شاعر تركيا العظيم ناظم حكمت، وشاعر تشيلي العظيم بابلو نيرودا، والروائي الروسي ديستوفيسكي في روايته منزل الأموات، وآخرون فالسجون موجودة والتعذيب موجود في كل الدول منذ القديم وحتى أيامنا هذه، ولن يتوقف إلى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا"[18].

وتعتبر تجربة ديستويفسكي أكبر مدونة في أدب السجون، وقد كان تأثيرها كبير على مختلف الأصعدة لأنه يحدثنا فيها عن منزل يدفن فيه البشر أحياء 1861/1860، وقد " لقي هذا الكتاب إقبالا شديدا وأصاب نجاعا عظيما. وقد نشر في ظروف مواتية كما قال أحد معاصريه ذلك أن روحا من التسامح والتساهل كانت تسيطر عندئذ على الرقابة"[19]. وهو ما جعل السلطات السياسية في البلاد تتحرك "ففي شهر حزيران "يونيه" من عام 1862 بعد نشر الفصول التي تصف العقوبات الرهيبة، كتب الجنرال الأمير نيكولا اورلوف رسالة إلى الإمبراطور يرجوه فيها إلغاء العقاب الجسدي الذي وصفه دوستويفسكي وصفا حيا قويا"[20] .

خلاصة القول أن أدب السجون شكل منعطفا هاما في تاريخ الأدبين العربي والغربي، كما أنه جسد معاناة الإنسانية، في محاولة إيصال عالم ما وراء القضبان للحصول على الحرية ورفع الاضطهاد، فما أكثر المؤلفات المدونة في هذا الفن وما أعظم هدفها.

3. رواية "سيغون ستارغو" لمحمد بن زخروفة

1.3 نبذة عن حياة الكاتب:

محمد بن زخروفة [21] هو شاعر وروائي جزائري من ولاية الشلف، وبالتحديد من بلدية عين مران، من مواليد 13 جوان 1990 بأولاد زياد بلدية الصبحة ولاية الشلف، درس بكلية العلوم والتكنولوجيا ثم بكلية الأدب، كتب أول قصة قصيرة وعمره 16سنة بعنوان "وفاء الحيوان" كما أنه كتب الشعر بنوعيه التقليدي وشعر التفعيلة، شارك محمد بن زخروفة في عديد من الملتقيات الأدبية والشعرية داخل وخارج الوطن، فاز بجائزة مهرجان همسة للآداب بمصر سنة 2015. في رصيده حاليا رواية رحلة الشفاء وديوان شعري، كما له روايتين هما رواية سيغون ستارغو، و زارة الحب المقدس، ومجموعة قصصية تحت عنوان اللآلئ السبع.

2.3 ملخص رواية "سيغون ستارغو":

تقع الرواية في حدود مئة وعشرين صفحة، وتدور أحداثها حول توماس جون ريش ذلك الجندي الفرنسي "الذي كان همه منذ طفولته تكوين أفكار تخدم الإنسانية، لكن وصية أبيه الضابط فرضت عليه الانخراط في الجيش، مما وضعه في مقام تجاذبته فيه قيمه وقيم العسكر. انتصر لقناعاته فسجن في حبس سيغون رفقة جزائريين وعومل بوحشية. إنها رواية تلفت انتباه الجزائريين إلى تعسفهم في نسيان من ساندهم من الفرنسيين"[22] .

وتعد الرواية في مجملها عملا تاريخيا "يحكي عن الفترات العصيبة الأولى من الاستعمار الفرنسي للجزائر، وبالتحديد يحاكي في صفحاته تلك المجازر الرهيبة المرتكبة في حق الشعب الجزائري والتي حاول المستعمر التستر عنها بكل الطرق، ومن خلال التقليل من أهميتها أو تقديم حجج واهية عن الأسباب الدافعة لقتل الجزائريين مثلما كان ينادي أغلب رهبان وزعماء فرنسا آنذاك بأن فرنسا قدمت للجزائر من أجل زرع الحضارة والتمدن في أوساط الشعب"[23].

ويغوص الروائي بن زخروفة في أحداث محرقة "أولاد رياح" بمنطقة الظهرة يومي التاسع عشر والعشرين من شهر جوان 1845 وكذلك محرقة "الصبيح" من نفس العام، مع بعض أحداث الرواية التي تجري بسجن سيغون بمستغانم، حيث أشيع بين القبائل أن من دخل أبواب هذا السجن لن يعود حيا، فكان قادة الاستعمار وقساوسته يجبرون المعتقلين على التنصير أو الموت، فلم يسلم منهم النساء والأطفال الرضع والشيوخ، وذهب الكثير ضحية هذه الهمجية التي تكشفها أحداث الرواية[24]، التي تحمل بين طياتها الكثير من القراءات التأويلية والتفسيرية.

4.تمثلات فضاء المكان في رواية "سيغون ستارغو":

1.4 قراءة في فضاء العنوان لرواية "سيغون ستارغو" لمحمد بن زخروفة:

بداية لطالما سعت السيمياء السردية إلى "استجلاء العناصر السردية حسب ظهورها في النص، وتحديد الحالات والتحويلات التي تحكم بنية الخطاب السردي"[25]، وهو ما يتأتى من خلال استقراء مجموعة من العتبات التي تسعى إلى إظهار مواطن الجمالية في الخطابات الروائية، وتشكل عتبة الغلاف" أولى عتبات العبور إلى عوالم النص الروائي الرمزية والدلالية، حيث يشكل ذلك النص الموزاي"[26]، ولما ارتبطت الألوان بالصور كان من الواجب علينا عند الحديث عنها وعن وظائفها، أن نطرق باب الغلاف الخارجي لرواية "سيغون ستارغو"، على اعتباره من بين العناصر الأساسية في فهم النص الإبداعي للرواية، وذلك لأن الصور والألوان تعد من أهم العناصر التي تستنطق ما يجول بين دفتيها من أحداث.

وبإمعان النظر في الرواية يتجلى لنا أن غلافها محمل بمجموعة من الألوان التي شكلت مجموعة من العلامات اللسانية، والتي تؤدي وظائف دلالية وإشارية متنوعة. ولما كنا بصدد دراسة الرواية لاحظنا بين جنبات غلافها الخارجي انتشارا واضحا للون الأسود المتداخل مع البني الداكن بشكل متمازج، ذلك "أن (الأسود، البني، الأحمر) يرتبط ارتباطا مباشرا بالعتمة. فهي لا تنمو إلا في ظلمة مقربة، إضافة إلى أنها تظهر كطبقات من العتمة"[27].

هذا وعند تشريح الألوان الواردة فقد جاء اللون" الأسود نقيض الأبيض"[28]، وقد غطى الأسود وبعض تدريجاته جل الغلاف الخاص برواية "سيغون ستارغو"، فترك هذا الأخير لوحة سوداوية انغمست فيها العديد من الدلالات والرموز، أحالت إليها صورة القضبان التي جاءت بشكل متعمد، فكونه مرتبطا بالسجن وظلمته، انعكس ذلك في تفاصيل الصورة بشكل عام.

تأسيسا لما سبق، فإن النظر في غلاف رواية "سيغون ستارغو"، يحيلنا إلى القول أن الألوان ليست "مجرد معطى طبيعي منحته الطبيعة للإنسان، بل إن لها من الدلالات والمعاني والرموز ما يشي بأهميتها وفعاليتها في حياته"[29]، وقد ارتسم على غلاف الرواية صورة للظلام والحزن الذي يعيشه المسجون وراء قضبان السجن فجاء عاكسا لفحوى الرواية وما يعيشه بطلها.

وفي إطار الحديث عن العنوان يمكننا القول بأنه أولى الفواتح النصية، إذ يعمل على نقل القارئ من عالم الواقع المنتمي إلى خارج النص إلى عالم المتخيل الذي يعيده إلى داخل النص، وهو" للكتاب كالاسم للشيء، به يعرف وبفضله يتداول، يشار به إليه، ويدل به عليه، يحمل وسم كتابه"[30]، ويرى جيرار جينيت "أن بنية العنوان ودلالته لا تنفصل عن خصوصية العمل، فهو يتضمن العمل مثلما أن العمل يتضمن العنوان. أما جان كوهين في كتابه قضايا الشعرية، فقد اعتبر العنوان جزء من التشكيل اللغوي للنص، وتأسيسا على ما تقدم تعد البنية التركيبية للعنوان هي أول ما يعالجه الناقد السيميائي" [31].

ومن هنا فقد أولى البحث السيميائي جل عنايته لدراسة العنونات في النص الأدبي، وقد ظهرت بحوث ودراسات سيميائية كثيرة، خصصت جزءا كبيرا منها لدراسة العنوان وتحليله من عدة نواح: تركيبية ودلالية وتداولية، وآية ذلك أن العنوان هو أول عتبة يمكن أن يطأها الباحث السيميائي قصد استنطاقها واستقرائها بصريا ولسانيا وأفقيا وعموديا[32].

وعند دراستنا للعنوان في رواية "سيغون ستارغو" "كان لزاما علينا تأطير العنوان" ضمن النص الموازي أو هوامش النص كما يعبر "هنري متران". وهذه العتبات عبارة عن ملحقات تحيط بالنص من الناحية الداخلية أو من الناحية الخارجية. وهي تنسخ خطابا

روائيا عن النص الإبداعي. وترسل حديثا عن المجتمع والعالم. ومهما بدت مستقلة أو محايدة، فإنها شديدة الارتباط بالنص الروائي الذي تقف في بوابته ومداخله"[33].

ونحن بصدد دراسة عنوان الرواية، لفت انتباهنا لأول وهلة، أنها تلتزم بالصياغة الاسمية المركبة تركيبا نحويا، حيث يتكون العنوان من جملة اسمية تنقسم إلى جزأين الأول مبتدأ "سيغون"، أما الجزء الثاني فهو "ستارغو" ويمثل الخبر.

وإذا ما تأملنا العنوان"سيغون ستارغو" بنظرة تحليلية وجدنا أن الرواية من كتابات أدب السجون، ومنذ القراءة الأولى للعنوان وجدناها تختلف عما هو متداول من عناوين الروايات التقليدية. وهذا ما يبدو جليا في تصريح بن زخروفة لـ"جريدة المحور اليومي"حين يقول: أن روايته "سيغون ستارغو"، "سيغون" هو اسم السجن، وستارغو تعني بالإنجليزية مخزن"،أي "سيغون المخزن"[34]، وتعني الترجمة كاملة سجن المخزن. وقد شكل عنوان الراوية "سيغون ستارغو" مجموعة "وظائف أساسية يسهم تحديدها في إضاءة النص وإتاحة إمكانيات تأويله، خصوصا إذا كان نصا معاصرا يغلفه طابع من الإبهام أو الغموض، مفتقرا إلى الانسجام والوصل المنطقي والترابط الاسنادي"[35].

وبذلك يمكن الوصول إلى أن النص الإبداعي لرواية "سيغون ستارغو" يتشكل من معادلة متمازجة، أولها العنوان وآخرها النص الإبداعي، وحقيق لمن كانت له الصدارة أن يدرس ويحلل وينظر من خلاله إلى النص من منطلق أن العنوان حمولة مكثفة للمضامين الأساسية للنص، وهو وجه النص مصغرا على صفيحة الغلاف. لذا فهو يعد نظاما سيميائيا، ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية تغري الباحث بتتبع دلالاته، ومحاولة فك شفراته الرامزة بغية استجلاء المفاهيم النصية المتراكمة داخل الحيز النصي.

وبالتطرق إلى العلاقة بين عنوان الرواية "**سيغون ستارغو**" والرواية، فتبدو العلاقة وثيقة وعضوية. فالأول: نص مختصر/مكثف على قدر من الغموض الناجم عن التباس ملفوظه وامتناعه عن الكشف عن أبعاده الدلالية، بينما الثاني (أي النص الروائي): نص كلي /جامع، ولذلك يعد العنوان من مظاهر الإسناد والربط، وبالتالي فالنص إذا كان بأفكاره المشتتة مسندا، فان العنوان مسند إليه. فهو الفكرة العامة بينما الخطاب النصي يشكل الأفكار الأساسية للفكرة العامة يحتويها العنوان.

وبناء على سبق ذكره فإن للعنوان في رواية" سيغون ستارغو"العديد من الوظائف تتمثل في الوظيفة الإيديولوجية، ووظيفة التسمية، ووظيفة التعيين، والوظيفة الأيقونية، والوظيفة الموضوعاتية، والوظيفة التأثيرية، والوظيفة الإيحائية، ووظيفة الاتساق والانسجام، والوظيفة التأويلية، والوظيفة الدلالية، والوظيفة اللسانية والسيميائية، وتمثل العلاقة بين العنوان "سيغون ستارغو" والنص علاقة وطيدة، لأن كل واحد منهما يكمل الآخر. فلا يفهم العنوان إلا إذا تأملنا في ثنايا النص′ ولا يفهم النص في حال غياب العنوان فيستعصى علينا استقراءه إلا من خلال العودة إلى العنوان.

2.4 قراءة في فضاء المكان لرو اية سيغون ستارغو:

يكتسب المكان أهمية كبيرة في روايات أدب السجون، لا لأنه أهم عناصرها الفنية، أو لأنه المكان الذي تجرى فيه الأحداث فحسب، بل لأنه يتحول فيها إلى فضاء يحتوى كل العناصر الروائية، بما فيها من حوادث وشخصيات، وما بينها من علاقات، وقبل التطرق إلى بنية المكان في رواية "سيغون ستارغو" وجب علينا تعريفه.

إن المكان لغة اسم مشتق يدل على ذاته، وقد وردت العديد من التعريفات اللغوية لكلمة المكان منها: جاء في كتاب العين" المكان في أصل تقدير الفعل: مَفْعل، لأنه موضع للكينونة، غير أنه لما كثر أجروه في التصريف مجرى الفعال، فقالوا: مكنا له، وقد تمكن، وليس بأعجب من تمسكن من المسكين، والدليل على أن المكان مَفْعل: إن العرب لا تقول: هو منى مكان كذا وكذا إلا بالنصب"[36]. وما يمكن قوله حول مختلف التعاريف لمفردة المكان أنها جاءت في معنى الموضع.

هذا وقد شكل مصطلح المكان نقطة تساؤل لدى النقاد والدارسين، فاختُلف في وضع مفهوم محدد له، فنجد أنه" عند الحكماء: هو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوى، وعند المتكلمين: هو الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وينفذ فيه أبعاده"[37]. فيما يرى غاستون باشلار بأن مفهوم المكان له علاقة مع الخيال حين يقول" المكان الممسوك بواسطة الخيال لن يظل مكانا محايدا خاضعا لقياسات وتقييم مساح الأراضي، لقد عيش فيه بشكل وضعي بل بكل ما للخيال من تحيز،

وهو بشكل خاص في الغالب مركز اجتذاب دائم وذلك لأنه يركز الوجود في حدود تحميه"[38].

ويعرفه عبد المالك مرتاض بقوله" هو كل ما عنى حيزا جغرافيا، من حيث نطلق الحيز في حد ذاته، على كل فضاء خرافي أو أسطوري أو كل ما يند عن المكان المحسوس: كالخطوط والأبعاد والأحجام والأثقال والأشياء المجسمة مثل الأشجار والأنهار وما يعتري هذه المظاهر من حركة أو تغير"[39]. بناء على ما سبق يمكن القول أن المعنى الاصطلاحي لمفردة المكان مرتبطة بالحيز الجغرافي، وقد شغلت اهتمام كل من النقاد والفلاسفة والدارسين العرب منهم والغرب.

وقد قسم النقاد المكان الروائي إلى قسمين: الأماكن المفتوحة، والأماكن المغلقة بما أن المكان يختلف حجما وشكلا ومساحة فهناك أماكن ضيقة مغلقة وأماكن متسعة مفتوحة، وفي هذا الشأن يقول حسن بحراوي" لقد نظرنا إلى الأماكن والفضاءات التي تزخر بها الرواية المغربية فوجدناها تتوزع إلى فئات ذات تنوع كبير من حيث الوظيفة والدلالة، وأمكننا أن نميز مبدئيا بين أمكنة الإقامة وأمكنة الانتقال لكي نحصل على ثنائية ضدية أولى سيتلوها اكتشاف ثنائيات وتقاطبات أخرى تابعة أو ملحقة. وهكذا صار باستطاعتنا أن نعثر مثلا ضمن أماكن الإقامة على تقاطب جديد بين أماكن الإقامة الاختيارية وأماكن الإقامة الإجبارية... وتقاطبات أخرى بين أماكن الإقامة الراقية والشعبية القديمة والجديدة الضيقة والمتسعة، الآهلة والخالية، القريبة والنائية الخ"[40]. وإذا ما قسمنا أنواع المكان في رواية "سيغون ستارغو" وجدناها منقسمة إلى:

أماكن مغلقة:

يعد المكان المغلق مكانا خاصا أي أنه لا يختص بالجماعة، و"يمثل غالبا الحيز الذي يحوي حدودا مكانية تعزله عن العالم الخارجي، ويكون محيطه أضيق بكثير من المكان المفتوح، فقد تكون الأماكن الضيقة مرفوضة لأنها صعبة الولوج، وقد تكون مطلوبة لأنها تمثل الملجأ والحماية التي يأوي إليها الإنسان بعيدا عن صخب الحياة"[41]. ومن الأمثلة على الأمكنة المغلقة المنزل، الغرفة، الدكان...

وبالعودة إلى رواية" سيغون ستارغو" نجد أن السجن وهو "البيت الذي يحبس فيه السجين" [42]، هو المكان المغلق الذي استحوذ على معظم جنبات النص الروائي ككل، وقد وصفه أحد الجنود السجانين" بالجحيم" [43] ، وذلك أثناء الحوار الذي دار بينه وبين توماس وصديقه بيل حين وصولهم من رحلة النفي إلى الجزائر فيقول: "هناك تموت القلوب.. مكان لابد أن تكون وحشا وأن ترفس ضميرك "[44]، ثم يردف قائلا" سجن "سيغون"، وما يشاع عليه أيضا أنه من يدخله من الأسرى فهو إما هالك أو سجين منتصر، وهذا كله حقيقي على أفواه الجند الذين قضوا فترة هناك"[45]. وقد أرسل توماس إلى "ستارغو" وهو مخزن السجن، ويمثل "ساحة كبيرة تحمل عددا هائلا من العربات القديمة وعربات مجزأة، وأخرى لم يبق منها غير هيكلها، وعجلات موزعة على المكان" [46]، وهو على حد تعبير الجندي السجان "مقبرة للآلات التي لا تصلح، وكذلك الأشخاص..."[47]، وقد أنهى بن زخروفة روايته بعبارة تحمل الكثير من التأويلات السيميائية والدلالية، وذلك في معرض سرده للحوار الذي دار بين بيل وتوماس حين أجاب هذا الأخير عن سؤال بيل حول عنوان مذكراته فيقول: "مممم، فليكن " سيغون ستارغو" مكان قلت فيه كلاما جريئا ندمت عليه كثيرا، ومكان ذرفت فيه دمعا حارا لم اعتده من قبل"[48]. ومن بين الأماكن المغلقة الأخرى التي ذكرها الروائي:

الكنيسة: وهي مكان مغلق تمثل" متعبد اليهود أو النصارى أو الكفار"[49]، وقد أخذت نصيبا وافرا من النص الروائي في رواية "سيغون ستارغو"، منذ بدايته كيف لا وشخصية البطل توماس تمثل جزءا من هذا الكيان، وفي ذلك يقول محمد بن زخروفة مفتتحا روايته " كدأبي، كنت مبحرا في صلوات القديس يوهانا وهو يطلب بخبث من حسناء زارته في الكنيسة أن تطيل الصلاة في حضرته"[50].

الثكنة: وتمثل مكانا مغلقا بكل تفاصيلها، وهي" مركز الجند"[51]، وقد شكلت حيزا لا بأس به في بداية النص الروائي حتى نهايته خاصة وأن توماس مجند في صفوف الجيش الفرنسي، فها هو يسرد لنا مدى الهول الذي وقع إثر التفجير الذي وقع فيقول:"كان يوم أحاد باردا مظلا من الأسبوع الثّاني من شهر آذار، يعتبر هذا اليوم أسوء يوم بالنّسبة للجنود المداومين على الحراسة، كونه يوم عطلة، والوقت يمرّ فيه ثقيلا جدّا بسبب الفراغ الذي يجده الجنود داخل الثّكنة[52].

البيت: يعد المنزل المكان الوحيد الذي يشعر فيه الإنسان بالراحة من ضغوط العمل، وقد تعددت مواضع ذكره في رواية "سيغون ستارغو" خاصة حينما يسرد توماس حياته اليومية مع والدته فيكتوريا وخطيبته في ذلك يقول واصفا أمه حين نبئت بخبر تهجيره إلى الجزائر "رمت إلينا خطواتها نحو البيت وهي تحدث نفسها[53].

السفينة: هي"الفلك"[54] ومثل بقية الأمكنة السابقة الذكر فقد شغلت هي الأخرى حيزا كبيرا في رواية "سيغون ستارغو" وقد تعددت مواطن ذكرها وأسهب بن زخروفة في الحديث عنها بمناسبة وغير مناسبة فمرة يصفها ومرة يستطرد الحديث حولها من ذلك قوله" كانت الوجوه على سطح السفينة متشابهة، تحمل سمة الحزن نفسها والقلق...كل الملامح على ظهر السفينة تعكس بعضها، لا صوت يطرق آذان الرّكاب غر صوت الرّيح وهو ينفخ في الأشرعة، وصخب الموج وهو يصطدم بصدر السّفينة[55]. كما يقول "هذه السّفينة تحمل عددا كبيرا من العساكر الّذين يحسّون حيال أنفسهم بالظّلم، بينما يسرّهم بضع رجال، تخيل بضع رجال فقط يحملون عقولا مثلنا، نحن لسنا قطيع غنم و لسنا عبيدا[56].

وما تم ملاحظته من خلال دراستنا لرواية "سيغون ستارغو" أن الأماكن جاءت في مجملها أماكن مغلقة إلا ما ورد منها على سبيل السرد والوصف، وذلك يعكس كما من الانغلاق الذي تعيشه ذات البطل توماس فمن التجنيد إلى التهجير ثم السجن يبقى متلاطما بين جنبات الأماكن المغلقة التي تعبر عن حزنه ووحدته وعزلته.

وعند الحديث عن الأماكن المفتوحة في الرواية فقد كان ورودها ضئيلا، وذلك لأن الرواية في كل تفاصيلها تجسد تجربة للنفي والسجن، وهو ما يعبر عن الضيق والوحدة وهذا ما يناقض الانفتاح الذي تمثله الأماكن المفتوحة، والتي تعرف بأنها "حيز مكاني خارجي لا تحده حدود ضيقة يشكل فضاء رحبا وغالبا ما يكون لوحة طبيعية للهواء الطلق"[57]. ومن الأمثلة على الأماكن المفتوحة: القرية، الشوارع، المدينة، الحقول، الصحراء... وتمثل "الجزائر" أهم الأماكن المفتوحة التي ذكرت في الرواية يقول الراوي وهو يصف حال إلينا حين سماعها بخبر تهجير توماس: " قد حفر الخبر الّذي تلقّته إلينا لتوّها عن نقل توماس كره إلى الجزائر [58]، وبذلك فقد شكل المكان بمختلف أنواعه عنصرا هاما في تشكيل البنية الروائية.

5.خاتمة

من خلال دراستنا لموضوع أدب السجون في رواية "سيغون ستارغو" لمحمد بن زخروفة، توصلنا إلى مجموعة من النتائج:

- شكل أدب السجون رافدا من روافد الأدب، ومثل متنفسا لما يعانيه المسجون من آلام وحزن وظلم.
- تمثل رواية "سيغون ستارغو" تجربة للكتابة المغاربية في أدب السجون.
- تميز عنوان رواية "سيغون ستارغو" بكونه جزءا يحيلنا إلى مختلف الوظائف السردية للنص الروائي، وقد كشف عن العلاقة القائمة بينه وبين النص الداخلي للرواية. وهو معبر عن أدب السجون بشكل عام.
- احتوت رواية "سيغون ستارغو" على العديد من التأويلات والأبعاد الدلالية، وبذلك فهي تمثل أرضا خصبة للدراسة على مختلف مناهجها.
- المتصفح لهذه الرواية يدرك أن الكاتب اهتم بالمغزى العام للقصة، التي عبرت عن بنية نصها الروائي بطريقة متميزة، متخذا من الأماكن المغلقة إطارا لأحداثها، لأنها تعيش تجربة عزلة وسجن.

6. الهوامش:

[1] **محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، م1، دار صادر، بيروت، ص206**

[2] **الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تح: عبد الحميد هندواي، ج1، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003م، ص60**

[3] **محمد عزام، المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ص19**

[4] **سمير سعيد حجازي، قاموس المصطلحات "النقد الأدبي المعاصر"، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2001م، ص78**

[5] **محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري جمال الدين أبو الفضل، لسان العرب، م13، دار صادر، بيروت، ص203،**

[6] **مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي، القاموس المحيط، دار الحديث، القاهرة، 2008م، ص749.**

[7] **إسحاق إبراهيم منصور، الموجز في علم الإجرام والعقاب، ديوان المطبوعات الجامعية، ط3، الجزائر، م1989، ص163.**

[8] محمد حور، القبض على الجمر" تجربة السجن في الشعر المعاصر، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ص07.

[9] بشير زين العابدين، إدارة المشاريع السياسية في عالم عربي متحول، مركز شارك، ط1، المملكة المتحدة، 2020م، ص269.

[10] واضح الصمد، السجون و أثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 1995م، ص09.

[11] سالم المعوش، شعر السجون في الأدب الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 2003م، ص 173.

[12] واضح الصمد، السجون و أثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ص08.

[13] محمد حور، القبض على الجمر" تجربة السجن في الشعر المعاصر"، منشورات وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ص22.

[14] واضح الصمد، السجون و أثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، ص207.

[15] شعبان يوسف، أدب السجون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2014م، ص33.

[16] الكبير الداديسي، مسارات الرواية العربية المعاصرة، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، 2018م، ص179.

[17] المرجع نفسه، ص179.

[18] جميل السلحوت، أدب السجون، دار الجندي للنشر والتوزيع، ط1، القدس، 2012، ص10.

[19] المرجع نفسه، ص05.

[20] دوستويفيسكي، ذكريات من منزل الأموات، تر: سامي الدروبي، دار التنوير، ص11.

[21] المهدي سلطاني، جريدة التحرير، الجزائر، ع605، 13افريل2015.

[22] محمد بن زخروفة، رواية سيغون ستراغو، الجزائر تقرأ، الجزائر، 2018م، ص220.

[23] صارة بوعياد، بن زخروفة يستنطق أسوار السجون الاستعمارية، جريدة المحور اليومي، تاريخ النشر: 2017/01/02، تاريخ الاطلاع: 2021/10/10 الساعة 12.21، انظر الرابط: /http://elmihwar.dz/ar/121357

[24] الرابط نفسه.

[25] جاك فونتاني، سيمياء المرئي، تر: علي اسعد، دار الحوار، ط1، اللاذقية، سوريا، 2003م، ص06.

[26] بوشوشة بن جمعة، شعرية العتبات في رواية "الأسود يليق بك" لأحلام مستغانمي، مجلة علوم اللسان، مخبر علوم اللسان، جامعة الاغواط، الجزائر، ع05-06، جوان 2014م، ص86.

[27] جاك فونتاني، سيمياء المرئي، تر: علي اسعد، دار الحوار، ط1، اللاذقية، سوريا، 2003م، ص196.

[28] إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، جمهورية مصر العربية، 2004م، ص461.

[29] شكري بوشعالة، رمزية الألوان من المقدس الديني إلى السياسي، مؤمنون بلا حدود، الرباطّ، المملكة المغربية، 2016 م، ص04.

[30] محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1998م، ص15.

[31] عيسى ماروك، دلائلية العنوان في "كاترين والرصاص"للقاص الجزائري محمد عبد اللهوم، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، طرابلس، لبنان، ع1، ديسمبر/كانون أول 2013م، ص77.

[32] بسام قطوس، سيمياء العنوان، مطبعة البهجة، عمان، الأردن، 2002م، ص33.

[33] رحماني علي، سيميائية العنوان في روايات محمد جبريل، الملتقى الدولي الخامس" السيمياء والنص الأدبي"، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 15-17نوفمبر2008، الجزائر، ص17.

[34] صارة بوعياد، بن زخروفة يستنطق أسوار السجون الاستعمارية، رابط سابق.

[35] عبد الناصر حسن محمد، سيميوطيقا العنوان في شعر عبد الوهاب البياتي، دار النهضة العربية، القاهرة، 2002م، ص10.

[36] الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ج4، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003م، ص161.

[37] الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تح: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، ص191.

[38] غاستون باشلار: جماليات المكان، تر: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط3، بيروت، لبنان، 1987م، ص179.

[39] المرجع نفسه، ص177.

[40] حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، 1990م، ص40.

[41] المرجع نفسه، ص59.

[42] الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: عبد الحميد هنداوي، ج2، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003م، ص218.

[43] محمد بن زخروفة، رواية سيغون ستارغو، ص76.

[44] المصدر نفسه، ص79.

[45] المصدر نفسه، ص79.

[46] المصدر نفسه، ص103.

[47] المصدر نفسه، ص103.

[48] المصدر نفسه، ص119.

[49] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: القاموس المحيط، تح: انس محمد الشامي، زكريا جابر احمد، دار الحدث، القاهرة، 2008، ص1438.

[50] حمد بن زخروفة: رواية سيغون ستارغو، ص06.

[51] إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ص98.

[52] محمد بن زخروفة: رواية سيغون ستارغو، ص10.

[53] المصدر نفسه، ص22.

[54] إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ص434.

[55] حمد بن زخروفة، رواية سيغون ستارغو، ص38.

[56] المصدر نفسه، ص43.

[57] اوريدة عبود، المكان في القصة الجزائرية الثورية دراسة بنيوية لنفوس ثائرة، دار الأمل للطباعة، الجزائر، ص51.

[58] محمد بن زخروفة، رواية سيغون ستارغو، ص27.

*** *** ***